كل منهما بنفسه . ولذلك حين جاء سيدنا عمر ، وكاد أن يركل جثة أحدهما قال الرسول : « دعها يا عمر فقد تابت توبة لو وزعت على أهل الأرض لوسعتهم»[1] .

وكون أبى لبابة يربط نفسه بالسارية ، فهذا يدل على أن المؤمن إذا اختمرت فى نفسه قضية الإيمان ، فإنه لا يترك نفسه إلى أن يلقاه الله بعذابه ، بل يقول : لا ، أنا أعذب نفسى كى أنجو من عذاب الله ، فهو قد تيقن أن هناك عذاباً فى الآخرة أقسى من هذا العذاب . فلما اعترفوا بذنوبهم وراجعوا أنفسهم متسائلين : ما الذى شغلنا عن الغزو ، وجعلنا نعتذر بالكذب ؟ وجدوا أنهم فى أثناء غزوة تبوك وقد كانت فى الحر ، وفيه كانت تطيب جلسات العرب تحت الظلال وأن يأكلوا من التمر . فقالوا : والله ، إن المال هو الذى شغلنا عن الغزو وجعلنا نرتكب هذا الذنب ، و لابد أن نتصدق به ؛ لذلك قلنا : إن هذه لم تكن الصدقة الواجبة ، بل هى صدقة الكفارة .

وهؤلاء قالوا للرسول ﷺ : خذ هذا المال الذى شغلنا عن الجهاد ، فلم يقبل حتى ينزل قول من الله ، فأنزل الحق قوله :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٠٣ ﴾

هذه هى الصدقة غير الواجبة ؛ لأنها لو كانت الصدقة الواجبة لما احتاجت إلى أمر جديد ، بل هى صدقة الكفارة .

(١) وذلك أن رسول الله ﷺ أمر بالمرأة فرجمت . ثم صلى عليها . فقال له عمر : تصلى عليها يا نبى الله وقد زنت ؟ . فقال : « لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم ، وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦٩٦) وأحمد فى مسنده (٤/ ٤٤٠) .

وقوله الحق : ﴿ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ يعنى أموال من اعترفوا بذنوبهم ، وقد نسب الأموال وملكيتها لهم ، رغم أن المال كله لله ، مصداقاً لقوله :

﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ... (٣٣) ﴾ [النور]

ولكن الحق ينقله إلى خلقه تفضلاً منه ، وأوضح سبحانه إذا قلت لكم : أخرجوا شيئاً من المال الذى وهبتكم إياه فلن أرجع فيما وهبته لكم ، ولذلك إذا احتاج مؤمن شيئاً من مؤمن مثله ، فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ ... (٢٤٥) ﴾ [البقرة]

وسبحانه واهب المال وهو يحترم هبته لصاحب المال .

وقوله : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ لاحظ فيه العلماء أن المال حين يضاف إلى صاحبه فهو تطمين له ، حتى يتحرك فى الحياة حركة فوق ما يحتاج ، ويبقى له شىء يتموّله ، وبذلك يحرص الإنسان على الحركة التى ينتفع بها الغير ، وإن لم يقصد . فيوضح له الحق : اطمئن إلى أن كل شىء سيزيد عن حاجتك يصبح ملكاً لك ، ولا يخرج المال عن ملكية صاحبه إلا إذا كان صاحبه غير أهل للتصرّف [1] ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ... (٥) ﴾ [النساء]

لأن السفيه [2] لا يصح أن يتملك ؛ لأنه بالحمق قد يضيع كل شىء ،

(١) وهذا ما يعرف بالحَجْر ، قال ابن كثير فى تفسير ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ (٥) ﴾ [النساء] : « ومن ههنا يؤخذ الحجر على السفهاء ، وهم أقسام ، فتارة يكون الحجر للصغر فإن الصغير مسلوب العبارة ، وتارة يكون الحجر للجنون ، وتارة لسوء التصرف لنقص العقل أو الدين ، وتارة للفلس وهو ما إذا أحاطت الديون برجل مضاق ماله عن وفائها ، فإذا سأل الغرماء الحاكم الحَجْر عليه حَجَر عليه » . (٤٥٢/١) .

(٢) السفيه : هو ناقص العقل سيء التصرف يقول الحق : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ (٥) ﴾ [النساء] أى : الذين يسيئون التصرف لجهلهم أو نقص عقولهم ، ويقول الحق أيضاً : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ... (١٣٠) ﴾ [البقرة] حملها على الجهل والطيش .

فينزل الحق الحكم : إن مال السفيه الذى يملكه ليس ماله إنما هو مالكم . ولكن إلى متى ؟ فيأتى القول الحق :

﴿ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ .. ﴿٦﴾ ﴾ [النساء]

أى : ردوا إليهم أموالهم متى عادوا إلى الرشد وصاروا أهلاً للملكية .

والحق فى هذه الآية يقول :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ والله سبحانه وتعالى هو صاحب المال ، وهو يأتى بالمال ، بالأسباب التى جعلها للبشر فى حركة الحياة ، وأمَّنهم على عرقهم ، وأمَّنهم على ما يملكون ؛ حتى لا يزهد أحد فى الحركة ؛ فلو أخذ كل واحد من حركته على قدر نفسه ، ولم يتملك المال ؛ لضنّ الناس بالحركة . وإذا ضن الناس بالحركة ؛ فلن يستفيد غير القادرين على الحركة ، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يجعل ما يزيد على حاجات الناس ملكاً لهم ؛ لأن النفس تحب أن تتملك ، والتملك أمر غريزى فى النفس ؛ بدليل أن الله سبحانه وتعالى هو الذى طلب أن يؤخذ من الأموال ، وأوضح أنه يضاعفها له ، ومعنى أنه يضاعفها عنده أنه يُنمى فيه غريزة التملك .

وقوله الحق : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ نلحظ فيه أن الأموال أضيفت لأصحابها ، ما لم يكن فيهم سفه فى التصرف أو عدم رشد ؛ بأن يكون وارث المال قاصراً لا يقدر على التصرف فيه ، فأوضح لنا سبحانه : لا تعتبروا مال السفيه ولا مال القاصر ماله ، ولكن ليرعى الوصىّ المال باعتبار أنه ماله هو ، وحذَّر سبحانه الوصىَّ : إياك أن تتعدى فى ملكية هذا المال ؛ لأن الذى جعله مالك ، إنما جعل الملكية من أجل القيامة على المال ، ولأجل هو أن يبلغ القاصر رشده ، أو يرجع السفيه إلى عقله .

﴿ وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً ... ⑤ ﴾[النساء]

فإياك أيها الوصى ، أن تظن أن الله قد أعطى لك هذا المال ، بل جعل لك حق القيام عليه فقط ، ثم يقول سبحانه : ﴿ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ ولم يقل : « فادفعوا إليهم أموالكم » وإلا كان الأمر صعباً على الناس .

وهنا ملحظية لحظها العلماء رضى الله عنهم ، وهو أن المال إذا كان فيه حق معلوم للسائل [1] والمحروم ، فلا يصح أن ينسب الإنسان المال كله لنفسه؛ لأن له شركاء فيه هما السائل والمحرو م ، فالمال - إذن - ملكية صاحبه باستثناء حق السائل والمحروم.

وفى آية أخرى قال الحق:

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ㉔ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ㉕ ﴾ [المعارج]

و«الحق المعلوم » هو الزكاة المفترضة من نصاب معلوم بقدر معلوم ، وأما الأمر الثانى فهو حق أيضاً ، ولكن الذى يوجبه ويحدده هو صاحب المال على نفسه ، وهو التطوع ، ولذلك لم يقل : حق معلوم كما فى سورة الذاريات:

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ⑮ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ⑯ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ⑰ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ⑱ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ⑲ ﴾ [الذاريات]

(١) الحق المعلوم هو الزكاة المفروضة ، والحق الغير معلوم هو ما ترك لاختيار النفس فى العطاء للوصول إلى مقام الإحسان بقدر كرمه مع الله .

لقد ذكر سبحانه هنا الحق ولم يقل إنه معلوم ؛ لأن صاحب المال داخل في مقام الإحسان [1] ، وهو المقام الذي يلزم الإنسان فيه نفسه بشيء فوق ما فرض الله من جنس ما فرض الله . والله سبحانه لم يفرض على الإنسان أن يقوم الليل كله ، أو يظل الليل يستغفر ، بل إن المسلم له أن يصلي العشاء وينام ، ثم يقوم لصلاة الفجر . لكن إن وجد في نفسه نشاطاً ، فهو يقوم الليل ؛ لأنه يريد أن يدخل في مرتبة الإحسان .

وكذلك يؤدي المسلم الزكاة وهذا حق معلوم ، أما إن رغب المسلم في أن يدخل في مقام الإحسان فهو يزيد على الزكاة ، وقد جعل الله هذا حقاً لكنه غير معلوم ؛ ليفسح لأريحيات الكرام أن يتجاوزوا الحق المعلوم ، فبدلاً من اثنين ونصف بالمائة ، قد يجعلها الداخل إلى مقام الإحسان ضعف ذلك أو أكثر .

ووقف العلماء رضي الله عنهم هنا وقالوا : إن قوله الحق : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ لا يعني اعتبار الجزء المأخوذ من المال للفقير هو حق الفقير ، بل هو مال المؤدي ، ولو بيّن الله حق الفقير وعزله عن مال صاحبه ، فهذا يعني أن المال إن هلك فليس للفقير شيء ، ولكن لأن المال مال الغني فحق الفقير محفوظ في ذمة صاحب المال ، وهذا أفضل للفقير ، فإن الغني لو لم يؤد الزكاة في ساعتها ، وبعد ذلك حدث أن هلك المال ، فالغني ضامن لحق الفقير .

---

(١) حَسُنَ الشيء صار حسناً جميلاً قال تعالى: ﴿ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [النساء] - أي : صار رفيقاً حسناً - « وأحسنُ » أفعل تفضيل ، مؤنثه « الحسنى » قال الحق : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴿١٨﴾ ﴾ [الزمر] - وقال: ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ﴿٩٥﴾ ﴾ [النساء] - أي : المنزلة التي هي أحسن المنازل ، والإحسان هو الكرم المخلص والعطاء الخالص ، والإحسان إلى الوالدين إكرامها - وهو أعلى مقامات القرب إلى الله .

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ ﴾ والصدقة تطهرهم ؛ لأن الذنب الذى فعلوه واعترفوا به تسبّب فى تقذير أنفسهم بالمعصية ، وماداموا قد قذروا أنفسهم بالمعصية [1] ، فهم فى حاجة أن يُطهَّروا بالمال الذى كان سبباً فى عدم ذهابهم إلى الغزوة.

وانظر هنا إلى ملحظ « الأداء البيانى » فى القرآن ، فالحق سبحانه يقول: ﴿ خُذْ ﴾ وهو أمر للنبى ﷺ ، ويقول: ﴿ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ من أموال الأغنياء ، هذه الصدقة ستذهب للمحتاج ، إذن هنا أربعة عناصر: آخذٌ هو رسول الله ﷺ ، ومأخوذ منه هو صاحب المال ، ومأخوذ هو المال ، ومأخوذ له هو الفقير المحتاج.

وما دام الأمر لرسول الله ﷺ ، فهذا الأمر ينسحب بالتالى على كل من وَلِىَ أمراً من أمور المسلمين . ولقائل أن يقول: ولكنها صدقة وليست زكاة. ونقول : ما دام الله هو الذى أمر بها تطهيراً فقد صارت واجباً، والآية صريحة ، وتقتضى أنه مادامت هناك ولاية شرعية ، فولى الأمر هو الذى يأخذ من الناس ويؤدى للفقراء ، أو لأوجه الصرف التى شرعها الله [2] ؛ لأن الله لا يريد أن يعذب الفقير بأن يمد يده آخذاً من مُسَاوٍ له ، أما إن أخذ من الوالى وهو المسئول عن الفقراء ، فلن يكون عيباً ، كما أن

(١) أى: جعلوا أنفسهم محلا للّوم والتقبيح . وقد أخرج الإمام مالك فى موطئه (ص ٨٢٥) من حديث زيد بن أسلم مرسلاً أن رسول الله ﷺ قال: « أيها الناس قد آن لكم أن تنتهوا عن حدود الله، من أصاب من هذه القاذورات شيئاً فليستتر بستر الله . فإنه من يبدى لنا صفحته نُقم عليه كتاب الله » .

(٢) ومصارف الزكاة قد بينها سبحانه فى قوله :﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) ﴾ [التوبة] ، وقد سبقت خواطر فضيلة الشيخ وإلهاماته عند تفسير الآية. ولولى الأمر الذى يطبق شرع الله أن يأخذ من أموال المسلمين لإقامة صرح العدالة فى المجتمع مصداقاً لمفهوم الآيات .

الحق سبحانه يريد أن يحمى أهل الفقير من أن يعلموا أن البيت الفلانى يعطى لهم زكاة ، فيعانى أولاد الآخذ من المذلة أمام أولاد المعطى ، ويعيش أبناء المعطى فى تعالٍ لا لزوم له. إذن: فحين يكون الوالى هو الذى يعطى فلن يكون هناك مُستعلٍ أو مُستعلًى عليه.

أما إن لم تكن هناك ولاية إسلامية، ولا يعلم الإنسان إلى أين ستذهب الأموال، فهنا يصبح على كل إنسان أن يراعى محيط دينه وهو يخرج الزكاة وحينئذ يكون عندنا مُعطٍ هو صاحب المال، ومال مُعْطًى ، ومعطًى له هو الفقير.

وعلى من يعود قوله الحق : ﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم ﴾ ؟ السطحيون فى الفهم يقولون: إنها تطهر من نأخذ منه المال، وتزكّى المال الذى نأخذ منه. لكن من يملك عمقاً فى الفهم يقول: مادامت هناك فى هذه الآية عناصر، فضرورى أن يعود التطهير[1] والتزكية عليها ، وإنها تطهر وتزكى المأخوذ منه صاحب المال ، وكذلك تطهر وتزكى المال المأخوذ ، وأيضاً تطهر وتزكى المأخوذ له وهو الفقير ، لأن التطهير معناه إزالة قَذَر ، والتزكية نماء.

القذارة أمر عارض على الشىء الذى نغسله ونطهره ، وتنمية له بشىء عائد عليه فيزداد ، وهكذا تُطهر الصدقة وتزكى عناصر الفعل كلها. والتطهير لمن يعطى، له معنى معه ، والزكاة لها معنى معه ؛ لأنك إن أخذت منه المال ، فقد يكون قد غفل وأدخل فى ماله شيئاً فيه شبهة، فالصدقة والزكاة تطهران هذا المال.

---

(١) طهُرَ يَطهُر من باب كَرُمَ ونصر - طُهراً وطهَارة زال عنه الدنس والقذر حسياً ومعنوياً ، وطهرت النفس سلمت من الآفات الخلقية وتنزهت عن النفاق وعن الحقد وعن كل الرذائل قال تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ﴿٦﴾ ﴾ [المائدة] . هذا فى الحسيات وقوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴿١٠٣﴾ ﴾[التوبة] تنزه قلوبهم وأنفسهم من الآفات الخلقية ، وهذا فى المعنويات .

أما كيف تنمِّى صاحب المال ؟ أنت إن أخذت منه وهو قادر، معنى ذلك أنك تطمئنه أنه إذا احتاج فستعطيه ، وبهذا يعرف أنه لا يعيش فى المجتمع بمفرده ، ولا يخاف أن يضيع منه المال ، واطمأن لحظة أن أخذت منه المال وهو قادر كى تعطى المحتاج ، فكأنك تطمئنه وتقول له: أنت لو احتجت فلن تضيع ، وبذلك تُنمِّى تواجده وثقته ، وطهرته أيضاً من أن يكون فى ماله شبهة ، هذا من ناحية صاحب المال.

أما من ناحية المال نفسه ، فالصدقة تطهر المال ؛ لأن المال قد يزيد فيه شىء فيه شبهة فالزكاة تطهره.

وقد يخيل إليك أنك حين تأخذ من المال فهو ينقص ، عكس الربا الذى يزيد المال ، فالربا مثلاً يحقق زيادة للمائة جنيه فتصبح مائة وعشرة مثلاً، أما المزكِّى فالمائة جنيه تصير سبعة وتسعين ونصفاً ، والسطحى يرى أن الزكاة أنقصت المال وأن الربا يزيده ، ولكن هذا بمقاييس البشر ، لا بمقاييس من يملك الأشياء ؛ فالزكاة التى تعتبرونها نقصاً تنمِّى ، والربا الذى تعتبرونه ينمّى إنما يُنقص ، والحق يقول:

﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ [1] الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ... ﴿٢٧٦﴾ ﴾ [البقرة]

إذن : فهناك مقاييس عند البشر ، ومقاييس أخرى عند الحق ، فما رأيته منقصاً لك ، هو عند الله زيادة ، وما رأيته مزيداً لك ، هو فى الواقع نقصٌ ، كيف ؟ لأن الناس لا ينظرون إلا إلى رزق الوارد الإيجابى ، ويظنون أن هذا هو الرزق ، ولا يتذكرون أن هناك رزقاً اسمه « رزق السلب» ، فرزق الإيجاب قد يزيد دخلك مثلاً من مائة إلى مائة وعشرة .

---

(١) محقه من باب فتح : أنقصه ، أو أبطله ، أو أهلكه قال تعالى : ﴿ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [آل عمران] أى يهلكهم وقال: ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا ﴿٢٧٦﴾ ﴾ [البقرة] أى ينقصه أو يهلكه ، نقيض ما يفعل بالصدقات .

ورزق السلب يتمثل فى أنك تصرف سبعين فقط ، بدلاً من أن تصرف مائةً ، فيبقى لك ثلاثون ، بالإضافة إلى أنه يمنع عنك مصارف الشر . هذا من ناحية المال .

والحق يقول :

﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩) ﴾ [الروم]

وكيف تكون الصدقة تطهيرا للآخذ وهو لم يذنب ذنباً يحتاج إلى تطهير ، بل هو مُعطىً له لأنه محتاج ؟ ونقول : إن الآخذ حين يأخذ من مال غيره ، وهو عاجز عن الكسب فهو يتطهر من الحقد على ذى النعمة ؛ لأنه وصله بعضٌ من المال الذى عند ذى النعمة ، فلا يحقد عليه ولا يحسده ، فهو إن رأى عنده خيراً ، دعا له بالزيادة ؛ لأن بعضاً من الخير يعود عليه .

والفلاحون فى ريف مصر يهدون بعضهم بعضاً من لبن ماشيتهم ، أو بعضا من الخير الخارج من لبنها ، وساعة أن تمر إحداها على أهل القرية يدعون الله بحمايتها ، وهكذا تتطهر نفس الفقير من الحقد والحسد .

هذا عن التطهير ، فماذا عن التزكية والنماء ؟ إن الفقير ساعة يرى نفسه فقيراً ، ويرى أن المجتمع الإيمانى يقوم برعايته ولا يتركه وحيداً ، ويتسابق أهل الخير لنجدته ، فنفسه تنمو بالاطمئنان ؛ لأنه فى مجتمع إيمانى . إذن : فقوله الحق : ﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم ﴾ راجع لكل العناصر فى الآية .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ أى : ادع لهم بالخير ؛ ولذلك كان النبى ﷺ كلما أتاه قوم بأى صدقة قال : « اللهم صَلِّ عليهم » فأتاه

أبو أوفى بصدقته ، فقال : « اللهم صَلِّ على آل أبى أوفى »[1] ، هذه هى التزكية القولية التى يحب كل مسلم أن يسمعها فيعطى ، ويجدّ ويجتهد من ليس عنده ؛ ليسمعها من رسول الله ﷺ .

وقوله الحق : ﴿ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ أى : اطمئنان لهم ، وما دام الرسول ﷺ قد دعا له ، فهو قد اطمأن إلى أن صدقته وصلت إلى مرتبة القبول حيث جازاها رسول الله بالدعاء. وإذا ما سمعها الآخذ للصدقة يقول بينه وبين نفسه : ولماذا لا أجدّ فى حياتى وأجتهد ؛ حتى أظفر بتلك الدعوة من رسول الله ﷺ ؟

وينهى الحق الآية بقوله : ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أى أنه سبحانه ﴿سَمِيعٌ﴾ لكل ما تعتبره قولاً . و﴿ عَلِيمٌ ﴾ بكل ما تعتبره فعلاً.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾

و﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا ﴾ مكونة من ثلاث كلمات هى : همزة استفهام ، « لم » حرف نفى ، و«يعلم» وهو فعل. فهل يريد الله هنا أن ينفى عنهم العلم أم يقرر لهم العلم ؟ لقد جاء سبحانه بهمزة يسمونها « همزة الاستفهام الإنكارى » والإنكار نفى ، فإذا دخل نفى على نفى فهو إثبات ، أى «فليعلموا ».

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٤٩٧) ومسلم (١٠٧٨) من حديث عبد الله بن أبى أوفى .

ولماذا لم يأت بالمسألة كأمر ؟ نقول: إن الحق حين يعرضها معرض الاستفهام فهو واثق من أن المجيب لا يجيب إلا بهذا ، وبدلاً من أن يكون الأمر إخباراً من الله ، يكون إقراراً من السامع .

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ ﴾ لماذا جاء الحق بكلمة ﴿هُوَ﴾ ، وكان يستطيع سبحانه أن يقول : "ألم يعلموا أن الله يقبل التوبة" ولن يختل الأسلوب ؟

أقول : لقد شاء الحق أن يأتى بضمير الفصل ، مثلما نقول : فلان يستطيع أن يفعل لك كذا . وهذا القول لا يمنع أن غيره يستطيع إنجاز نفس العمل، لكن حين تقول : فلان هو الذى يستطيع أن ينجز لك كذا . فهذا يعنى أنه لا يوجد غيره . وهذا هو ضمير الفصل الذى يعنى الاختصاص والقصر ويمنع المشاركة.

لذلك قال الحق: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ ...(١٠٤)﴾ [التوبة]

وهل كانت هناك مظنة أن أحداً غير الله يقبل التوبة ؟ لا ، بل الكل يعلم أننا نتوب إلى الله ، ولا نتوب إلى رسول الله. ونحن إذا استعرضنا أساليب القرآن، وجدنا أن ضمير الفصل أو ضمير الاختصاص هو الذى يمنع المشاركة فيما بعدها لغيرها؛ وهو واضح فى قصة سيدنا إبراهيم حين قال :

﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا
عَاكِفِينَ(٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣)
قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥)
أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧)﴾ [الشعراء]

ولم يقل سيدنا إبراهيم : "إنهم أعداء" ، بل جمعهم كلهم فى عصبة واحدة وقال : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي ﴾ .

و﴿إِنَّهُمْ ﴾ - كما نعلم - جماعة ، ثم يقول بعدها ﴿ عَدُوٌّ ﴾ وهو مفرد ، فجمعهم سيدنا إبراهيم وكأنهم شيءٌ واحد . وكان بعضٌ من قوم إبراهيم يعبدون إلهاً منفرداً، وجماعة أخرى يعبدون الأصنام ويقولون : إنهم شركاء للإله . إذن : كانت ألوان العبادة فى قوم إبراهيم عليه السلام تتمثل فى نوعين اثنين.

ولما كان هناك من يعبدون الله ومعه شركاء، فقول إبراهيم قد يُفسر على أن الله داخل في العداوة ؛ لذلك استثنى سيدنا إبراهيمُ وقال : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، أى : أن الله سبحانه ليس عَدُوّاً لإبراهيم عليه السلام، وإنما العداوة مقصورة على الأصنام . أما إن كان قومه يعبدون آلهة دون الله ، أى : لايعبدون الله ، لم يكن إبراهيم ليستثنى .

والاستثناء هنا دليل على أن بعضاً من قومه هم الذين قالوا :

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ... (٣) ﴾ [الزمر]

وهكذا تبرأ سيدنا إبراهيم عليه السلام من الشركاء فقال : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ وهذا كلام دقيق محسوب . وأضاف:

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) ﴾[1] [الشعراء]

ولم يقل: " الذى خلقنى يهدينى" ، بل ترك "خلقنى" بدون "هو" وخَصَّ الله سبحانه وحده بالهداية حين قال : ﴿ فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ ؛ لأن "هو"

(١) إن الأفعال التى لا تصدر إلا عن الله سبحانه وتعالى ، وليس للمخلوق فيها دخل لم يأت بضمير التخصيص ، مثل قوله تعالى : ﴿الَّذِي خَلَقَنِي (٧٨)﴾ [الشعراء] أما إذا كان الفعل يدعى البعض أنه فاعله فإن الأسلوب القرآنى يرد عليه بضمير الاختصاص ؛ لأن الهداية من الله ، وليس للعبد دخل فيها إلا بالقبول والالتزام .

لا تأتى إلا عند مظنة أنك ترى شريكاً له ، أما مسألة الخلق فلا أحدٌ يدّعى أنه خلق أحداً . فالخلق لا يُدَّعى ، ولذلك لم يقل " الذى هو خلقنى " .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ... ﴿٨٧﴾ ﴾ [الزخرف]

فليس هناك خالق إلا هو سبحانه . إذن : فالأمر الذى لا يقول به أحد غير الله لا يأتى فيه الضمير . لكن الأمر الذى يأتى فيه واحد مع الله ، فهو يخصَّص بـ" هو " تأكيداً على تخصيصه لله وحده ﴿ الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ فليس لأحد أن يُدخل أنفه فى هذه المسألة ؛ لأن أحداً لم يدّع أنه خلق أحداً ، فمجىء الاختصاص - إذن - كان فى مجال الهداية بمنهج الحق ، لا بقوانين من الخلق . فمن الممكن أن يقول بشر : أنا أضع القوانين التى تسعد البشر ، وتنفع المجتمع ، وتقضى على آفاته ، ونقول : لا ، إن الذى خلقنا هو وحده سبحانه الذى يهدينا بقوانينه .

إذن : فما لا يُدَّعى فلا تأتى فيه (هو) ، أما ما يمكن أن يُدَّعَى فتأتى فيه (هو). وقوله سبحانه :

﴿ وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الشعراء]

وجاء هنا أيضاً بضمير الفصل؛ لأن الإنسان قد يرى والده وهو يأتى له بالطعام والشراب فيظن أن الأب شريك لله ؛ لذلك جاء بـ ﴿ هُوَ ﴾ ، فأنت إن نسبت كل رزق يأتى به أبوك، لانتهيت إلى مالم يأت به الأب ؛ لأن كل شىء فيه سببٌ للبشر ينتهى إلى ماليس للبشر فيه أسباب ، فكل شىء من الله ؛ لذلك قال سيدنا إبراهيم :

﴿ وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾[الشعراء]

وخصص الشفاء أيضاً ؛ حتى لا يظن ظان أن الطبيب هو الذى يشفى ، وينسى أن الله وحده هو الشافى ، أما الطبيب فهو معالج فقط ؛ ولذلك تجد أننا قد نأخذ إنساناً لطبيب ، فيموت بين يدى الطبيب؛ ولذلك يقول الشاعر عن الموت :

إنْ نَام عنْكَ فَأىُّ طِبٍّ نَافِعٌ أوْ لم يَنَمْ فالطِّبُّ مِن أذنَابه

فقد يعطى الطبيب دواءً للمريض ، فيموت بسببه هذا المريض. وجاء سيدنا إبراهيم بالقصر فى الشفاء لله ؛ حتى لايظن أحد أن الشفاء فى يد أخرى غير يد الله سبحانه. ثم يقول سيدنا إبراهيم :

﴿ وَالَّذِى يُمِيتُنِى ... (٨١) ﴾ [الشعراء]

ولم يقل : "هو" يميتنى ؛ لأن الموت مسألة تخص الحق وحده ، وقد يقول قائل : كان يجب أن يقول : "هو يميتنى" ، ونقول : انتبه إلى أن الموت غير القتل ، فالموت يتم بدون نقض للبنية ، والقتل لا يحدث إلا بنقض البنية ، ويضيف الحق على لسان سيدنا إبراهيم :

﴿ وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) ﴾ [الشعراء]

وأيضاً لم يقل : "هو يحيينى" ؛ لأن هذا أمر خارج عن أى توهم للشركة فيه ، فقد جاء بـ "هو" فى الأمور التى قد يُظن فيها الشركة ، وهو كلام بالميزان :

﴿ وَالَّذِى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) ﴾ [الشعراء]

لم يأت أيضاً بـ "هو" ؛ لأن المغفرة لا يملكها إلا الله (١) .

---

(١) وفى هذا يقول سبحانه : ﴿ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ .. ﴾ [آل عمران: ١٣٥] .

إذن: فكل أمر معلوم أنه لا يشارك فيه جاء بدون «هو» ، وكل ما يمكن أن يُدَّعى أن فيه شركة يجيء بـ «هو» [١] .

وهنا يقول الحق: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ وظاهر الأمر أن يقال: ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة «من» عباده ، ولكنه ترك «من» وجاء بـ «عن». والبعض يقولون: إن الحروف تنوب عن بعضها ، فتأتى «من» بدلاً من «عن». ونقول: لا ، إنه كلام الحق سبحانه وتعالى ولا حرف فيه يغنى عن حرف آخر؛ لأن معنى التوبة ، أن ذنباً قد حدث ، واستوجب المذنب العقوبة ، فإذا قَبِل الله التوبة، فقد تجاوز الله عن العقوبة؛ ولذلك جاء القول من الحق محدداً : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ ﴾ أى: متجاوزاً بقبول التوبة عن العقوبة.

وهكذا جاءت «عن» بمعناها ؛ لأنه سبحانه هو الذى قَبِل التوبة ، وهو الذى تجاوز عن العقوبة.

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ﴾ صحيح أن الله هو الذى قال للرسول : ﴿ خُذْ ﴾ ولكن الرسول هو مناول ليد الله فقط ، و«يأخذ» هنا معناها « يتقبل » واقرأ قول الحق:

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ... (١٦) ﴾
[الذاريات]

أى: متلقين ما آتاهم الله . ومثال هذا ما يُروى عن السيدة فاطمة حينما دخل عليها سيدنا رسول الله ﷺ فوجدها تجلو درهماً ، والدرهم عملة من فضة . والفضة من المعادن التى لا تصدأ ، والفضة على أصلها تكون لينة

(١) وهذا يتلاقى مع ما ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣١٧٦) : « قوله تعالى: «هو» تأكيد لانفراد الله سبحانه وتعالى بهذه الأمور . وتحقيق ذلك أنه لو قال : إن الله يقبل التوبة ؛ لاحتمل أن يكون قبول رسوله قبولاً منه ، فثبتت الآية أن ذلك مما لا يصل إليه نبى ولا ملك ».

لذلك يخلطونها بمعدن آخر يكسبها شيئاً من الصلابة. والمعدن الذى يعطى الصلابة هو الذى يتأكسد ؛ فتصدأ الفضة ؛ لذلك أخذت سيدتنا فاطمة تجلو الدرهم. فلما دخل عليها سيدنا رسول الله ﷺ سألها: ما هذا ؟ قالت: إنه درهم . واستفسر منها لماذا تجلو الدرهم ؟ فقالت: كأنى رأيت أن أتصدق به ، وأعلم أن الصدقة قبل أن تقع فى يد الفقير تقع فى يد الله فأنا أحب أن تكون لامعة .

فعلت سيدتنا فاطمة ذلك ؛ لأنها تعلم أن الله وحده هو الذى يأخذ الصدقة.

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ . كل هذه الآية نفى لمظنة أن يتشككوا إذا فعلوا ذلك مع رسول الله ﷺ ، وأخذ رسول الله الصدقات ، فإن توبتهم قد قُبلَتْ ، ولكن الذى يقبل التوبة هو الله ، والذى يأخُذ الصدقات هو الله ؛ لأنه هو التواب الرحيم ؛ لذلك جاء قول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

إذن : هم أعلنوا التوبة بعد أن اعترفوا بذنوبهم ، وخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، وربطوا أنفسهم فى سوارى المسجد ، وقالوا: لا نحل أنفسنا حتى يحلّنا رسول الله ﷺ ، وقالوا: خذ من أموالنا صدقة لتطهرنا ؛ كل هذا جعل هناك حداً فاصلاً بين ماضٍ ندموا عليه ، ومستقبل يستأنفونه

قد ولد الآن . وبدأت صفحة جديدة ، فهل أنتم ستسيرون على مقتضى هذه التوبة أم لا ؟

ولا تظنوا أن أموركم ستكون فى الخفية بل ستكون فى العلن أيضاً، أما أموركم الخفية فسيعلمها الله ؛ لذلك قال: ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ﴾. أما الأمور التى تحتاج لفطنة [1] النبوة فالرسول ﷺ بفطرته سيراها بنوره فى سلوككم . أما الأمور الظاهرة الأخرى فسيراها ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾.

نحن هنا أمام ثلاثة أعمال : عمل يراه المؤمنون جميعاً ، فالتزموا بهذا المنهج حتى يشهد لكم المؤمنون بما يرون من أعمالكم ، وإياكم أن تخادعوا المؤمنين ؛ لأن رسول الله بفطنته ونورانيته وصفائه وشفافيته سيعرف الخديعة ، أما إن كانت المسألة قد تتعمَّى على المؤمنين وعلى الرسول ، فالله هو الذى يعلم.

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا ﴾ أى: اعملوا عملاً جديداً يناسب اعترافكم بذنوبكم ، ويناسب إعلانكم التوبة ، ويناسب أنكم ربطتم أنفسكم فى المسجد ، ويناسب أنكم تصدقتم بالأموال ، عمل تستأنفون به حياتكم بصفحة جديدة ، واعلموا أننا سنرقب عملكم ، الله يرقبه فيما لا يعلمه البشر ، وهو النيَّات ، ورسول الله يعلمه فيما يطابق نورانيته وإشراقه ، والمؤمنون يعلمونه فى عاديات الأمور [2] .

---

(١) لأن للرسول صفات تليق به وهى : العصمة والأمانة والبلاغ والفطانة .

(٢) عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ قال: « لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله للناس كائناً ما كان » . أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٢٨) والحاكم فى مستدركه (٤/ ٢١٤) وصححه وأقره الذهبى . وكذا أخرجه ابن حبان (١٩٤٢ - موارد الظمآن) . وفى الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله » . روى عن خمسة من الصحابة - فيما وقفت عليه - وكلها لا تسلم من مقال . ومنها حديث أبى سعيد الخدرى عند الترمذى فى سننه (٣١٢٧) وقال : غريب . فيه مصعب بن سلام . وللحديث طرق وروايات أخرى .

وهذه الرؤية من الله ومن الرسول ومن المؤمنين لا تكون لها قيمة إلا إذا ترتب عليها الجزاء ثواباً أو عقاباً ، فهى ليست مجرد رؤية ، بل إن الرائى يملك أن يثيب أو أن يعاقب. وأنكم راجعون إليه لا محالة. وإذا كنتم فى الدنيا تعيشون فى الأسباب التى يعيش فيها الكافر والمؤمن ، ويعيش فيها الطائع والعاصى ، فهناك عالم الغيب الذى يملكه الله وحده:

﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ [غافر]

إذن: سيعامل التائب معاملة جديدة ، ومادام قد تاب ، فلعله بسبب الغفلة التى طرأت عليه فأذنب ؛ غفل عن اليوم الآخر ، فيحتاج إلى تجديد التذكير بالإيمان.

لذلك قال: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾.

قوله سبحانه : (فَسَيَرَى) ذكر الفعل مرة واحدة ، فالرؤية واحدة ملتحمة بعضها ببعض لتروا هل أنتم على المنهج أم لا ؟

﴿ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أما عالم الغيب فانفرد به الله سبحانه ، وأما عالم الشهادة فالرسول سوف يعلم عنكم أشياء ، وكذلك المؤمنون يعلمون أشياء ، وربنا عالم بالكل . وسبحانه لا يجازى على مجرد العلم ، بل بنية كل إنسان بما فعل ، وسبحانه يقول:

﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء]

ولذلك يُنهى الحق هذه الآية بقوله:

﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وهؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم ، وربطوا أنفسهم فى السوارى ، وتصدقوا بالأموال ، وأعطى الله فيهم حكمه بأن

جعل رسول الله هو من يحل وثاقهم من السوارى ، وقبل منهم الصدقات؛ ليسوا وحدهم ، فهناك أناس آخرون فعلوا نفس الأمر ، لكنهم لم يربطوا أنفسهم فى سوارى المسجد ، ولا اعترفوا بذنوبهم ؛ لذلك يجىء قوله الحق :

﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾

والمقصودون بهذه الآية هم الثلاثة الذين سيخصهم القرآن بآيات خاصة يقول فيها :

﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [التوبة]

وهؤلاء الثلاثة هم : كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع [1]. وهم قد تخلفوا أيضاً عن غزوة تبوك ، ولم يكن لهم عذر فى التخلف أبداً ، فكل واحد يملك راحلته ، وعندهم مالهم ، وعندهم كل

---

(١) كعب بن مالك الأنصارى شاعر مشهور شهد بيعة العقبة الثانية وتخلف عن غزوة بدر وشهد ما بعدها ثم تخلف فى تبوك. توفى عام ٥٠ هـ فى زمن معاوية. (الإصابة فى تمييز الصحابة ٣٠٩/٥) .

أما هلال بن أمية الأنصارى فقد شهد بدراً وما بعدها ، مات فى خلافة معاوية ، وهو الذى ظهر صدقه فى قذفه لامرأته بالزنا (الإصابة ٢٨٩/٦) . أما مرارة بن الربيع الأنصارى ، فهو صحابى مشهور شهد بدراً أيضاً (الإصابة ٧٦/٦) .

شيء . وقد قصّ واحد منهم حكايته [1] ، وبيّن لنا أنه لم يكن له عذر : «وما كنت فى يوم من الأيام أقدر على المال والراحلة منى فى تلك الغزوة ، كنت أقول : أتجهز غداً ، ويأتى الغد ولا أتجهز ، حتى انفصل الركب ، فقلت ألحق بهم ، ولم ألحق بهم » .

هؤلاء هم الثلاثة الذين جاء فيهم القول: ﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ ﴾

و﴿ مُرْجَوْنَ ﴾ أو «مرجَئون» والإرجاء هو التأخير . أى: أن الحكم فيهم لم يظهر بعد ؛ لأن الله يريد أن يبين للناس أمراً ، وخاصَّةً أن رسول الله ﷺ لم ينشىء فى الدولة الإسلامية سجناً يُعزَل فيه المجرم ؛ وهذا لحكمة ، فكونك تأخذ المجرم وتعزله عن المجتمع وتحبسه فى مكان فهذا جائز . لكن النكال فى أن تدعه طليقاً ، وتسجن المجتمع عنه .

وهكذا تتجلى عظمة الإيمان ؛ لذلك أصدر ﷺ أمراً بأن يقاطعهم الناس ، فلا يكلمهم أحد ، ولا يسأل عنهم أحد ، حتى أقرباؤهم ولا يختلط بهم أحد فى السوق أو فى المسجد .

وكان أحدهم يتعمد أن يصلى قريباً من النبى ﷺ ويختلس النظرات ليرى هل ينظر النبى له أم لا ؟ ثم يذهب لبيت ابن عمه ليتسلق السور ، ويقول له : أتعلم أننى أحب الله ورسوله ؟ فيرد عليه : الله ورسوله أعلم. وهكذا عزل رسول الله ﷺ المجتمع عنهم ، ولم يعزلهم عن المجتمع . وكذلك

(١) هو كعب بن مالك ، قال: « لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما فى تلك الغزوة .. وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، فأنا إليها أصغى (أى: أميل) فتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، وطفقت أغدو لكى أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئاً وأقول فى نفسى: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى استمر بالناس الجد ... فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو ... » حديث طويل أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٦٩) .

عزلهم عن زوجاتهم ، وهو الأمر الذى يصعب التحكم فيه. وحذر ﷺ زوجاتهم أن يقربوهم إلى أن يأتى الله بأمره.

﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾

هذا بالنسبة لنا - إما أن يعذبهم وإما أن يتوب عليهم. لكن الحق سبحانه وحده هو الذى يعلم مصير كل واحد منهم.

فالتشكيك إذن هو بالنسبة لنا ؛ لأنهم مُرْجَوْن لأمر الله ولم يبت فيهم بحكم لا إلى النار ولا إلى الجنة ، ولم يَبت فيهم بالعفو . أما أمرهم فهو معلوم له سبحانه إما أن يعذب وإما أن يتوب ؛ لأن كل حكم من الله له ميعاد يولد فيه ، ولكل ميلاد حكمة ، وهناك قوم عجّل الله بالحكم فيهم ، وقوم أخّر الله الحكم فيهم ؛ ليصفى الموقف تصفية تربية ، لهم فى ذاتهم ، ولمن يشهدونهم.

وقد استمرت هذه المسألة أكثر من خمسين يوماً ؛ ليتأدبوا الأدب الذى دبهم به المجتمع الإيمانى ، فلم يشأ الله أن يبين الحكم حتى يستوفى هذا التأديب.

وإذا أُدِّب هؤلاء ، فإن تأديبهم سيكون على مَرْأى ومسمع من جميع الناس ، فيأخذون الأسوة من هذا التأديب.

ولو أن الله عجّل بالحكم ، لمرّت المسألة بغير تأديب للمعتذرين كذباً وغيرهم ، فقال: ﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ ﴾ ومادام سبحانه قد حكم هنا بأنهم مؤخَّرون لأمر الله ، فليس لنا أن نتعجل قصتهم ، إلى أن يأتى قول الله فيهم:

﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ... (١١٨) ﴾ [التوبة]

وأراد الله أن يقص لنا قصة أخرى من أحوالهم ، فقال :

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

يقص لنا القرآن هنا حالاً من أحوال المنافقين [١] ، وأحوالهم مع الإيمان متعددة . وقد ذكر الحق سبحانه عنهم أشياء صدَّرها بقوله : ﴿ومنهم﴾ ، ﴿ومنهم﴾ و ﴿ويحلفون﴾، ﴿ويحلفون﴾ ؛ ولذلك يسميها العلماء «مناهم التوبة» ، مثل قوله:

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ ... ﴿٧٥﴾ ﴾ [التوبة]

وقول الحق:

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ... ﴿٦١﴾ ﴾ [التوبة]

وقوله الحق:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ... ﴿٤٩﴾ ﴾ [التوبة]

---

(١) وهم اثنا عشر من المنافقين اتخذوا مسجداً ضراراً ؛ مضارة لأهل مسجد «قباء» وكفراً ؛ لأنهم بنوه بأمر أبي عامر الراهب ، ليكون معقلاً له يقوم فيه من يأتي من عنده ، وكان قد ذهب ليأتي بجنود من قيصر لقتال النبي ﷺ وتفريقاً بين المؤمنين الذين يصلون في قباء ، وإرصاداً وترقباً لمن حارب الله ورسوله ﴿ مِن قَبْلُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [التوبة] أي : قبل بنائه ، ﴿ وَلَيَحْلِفُنَّ ﴾ كذباً ما أردنا بالبناء ﴿ إِلَّا الْحُسْنَىٰ ﴾ من الرفق بالمسكين من المطر وحرارة الشمس ، والتوسعة على المسلمين ، ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الجلالين] بتصرف .